

اعمار مستقبل مصر وإشكالية التنمية المستدامة: غزو أم فتح الصحراء:

إ.د أحمد يحيى محمد جمال الدين راشد
مدير مركز الاستدامة ودراسات المستقبل - الجامعة البريطانية في مصر

التنمية المستدامة ودراسات مستقبل مصر ليست مجرد ضرورة نظرية، ولكنها قضية جيل لابد أن يجتهد ويفكر ليؤدي مسؤوليته نحو أجيال المستقبل. وعلى مدي سنوات تنوعت المشروعات ذات الصبغات القومية لعمران مصر، بدأت بتوقعات متفائلة وانتهت بنتائج محدودة أو إحباط. ومع أن قدرات مصر متجددة ومستعدة من جذورها الحضارية ومن طاقات الإنسان المصري إلا أن التفكير في المستقبل يجب أن يتعدى مراحل التجربة والخطأ التي تستنفذ الطاقات، وأن تكون خطواتنا مدروسة ومخططة وبنوع من شراكة الأطراف للوصول إلي تنمية مستقبلية ومستدامة.

والتنمية المستدامة لابد من التخطيط الاقليمي علي المستوي البيئي لها ان نفرق بين مفهومي غزو الصحراء وفتح الصحراء فغزو الصحراء تعني عدم الاستقرار وانها مرحلة مؤقتة بينما مدلول كلمة فتحها تعني استدامة التنمية بها وهنا يثار التساؤل: كيف يمكن استثمار الفرصة للتنمية المستدامة وماهي فرص الاستثمار؟ وهل التوجه للصحراء سيحقق تنمية مستدامة ومستقبل افضل لمصر؟ أم تلك الرؤي والخطوات تستنزف المقدرات الحالية والمستقبلية؟ وهل تم أو يتم الاستناد إلى دراسات واقعية، علمية وعملية في صناعة القرار، وهل تتواكب القرارات والخطوات مع معدلات التغيير والسرعة في التغيير وما نعيشه في مرحلة العولمة، وما يستتبع ذلك من تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية؟ وما هو دور التخطيط الاقليمي ودور التعليم المعماري؟

والتعامل مع الصحراء لابد أن يأخذ مدخلا مختلفا عن المعتاد. وتعتبر من المفارقات الملحوظة أن نسبة عدد سكان الصحراء المصرية إلى مجموع عدد سكان مصر تكاد تكون نفس نسبة مساحة وادي النيل إلى مساحة مصر، مما حدا إلى التفكير الدائم نحو غزو الصحراء أو اختراقها. وقد عبر جمال حمدان في كتاب شخصية مصر "دراسة عبقرية المكان" عن غزو الصحراء بأن قال:

"ليس سهلا، مع ذلك غزو الصحراء، لأنه ليس نزهة جغرافية أو حضارية، وإنما هو صراع كفاحي ضد الطبيعة ومعركة حقيقية ضد العنصر. والعملية مخاطرة ريادية قد تحتل الفشل والنكسات قدر ما تحمل من النجاحات. ومن الأسف أن المحاولات الثلاث الأولى لاستصلاح أرض الصحراء وتعميرها في العقدين أو الثلاثة الأخيرة (كان يعني خمسينيات وستينيات وسبعينات القرن الماضي)، سواء على تخوم الوادي نفسه أو في واحات قلبها، وهي مشروع مديرية التحرير ووادي النظرون والوادي الجديد، تعثرت بدرجات متفاوتة وانتظمت كثيرا من الخسائر ولم تحقق تقدير الأغلبية النجاح المرجو أو المرموق".

ويهمنا في هذا الصدد الإشارة إلى أنه لابد من تغيير المفاهيم الخاصة بإنماء الصحراء وكذلك بالمطلبات اللازمة لهذا الإنماء. ولذلك وجدنا انه لزاما علينا أن نغير من منطوق الكلمة إذا كان الهدف تغيير مطلبات مدلولها.

حيث تعنى كلمة غزو الصحراء والأصل (غ ز ا - والاسم الغزاة¹) أن ما سيتم فيها هو استيطان غير شرعي بالجبر والقوة والإرغام، وأن الهدف من غزو المكان هو استنزاف الموارد والثروات الكامنة في

¹ - المرجع من مختار الصحاح - باب الغين - ص 351.

الصحراء سواء كانت ثروات تعدينية أو زراعية على مصدر مائي محدود أو غيرها وتركها بمجرد انتهاء المخزون والمصدر. وفي الماضي أطلقت كلمة الفتوحات الإسلامية بدلا من غزوات لأن الهدف كان الأعمار في الأرض واستدامة هذا الأعمار ولذلك دامت واستمرت هذه الفتوحات والتي كان هدفها الأساسي هي نشر الدعوة. وعليه فإن المقصود والمدلول الفعلي للاتجاه نحو الصحراء هو إنماءها أو فتح الصحراء، والكلمة تعزز من مفهوم التنمية المستدامة والاستيطان المستهدف من التوجه للصحراء وأسلوب التعامل مع البيئة الصحراوية من منظور التعايش وليس الغزو هو الذي سيضمن هذه الاستدامة، وامكانية أعمار مصر المستقبل.

وعليه حتى يكون مفهوم فتح الصحراء منطقيا مع التفكير في التخطيط الاقليمي فإنه لا بد من طرح قضايا البيئة بمستوياتها المتدرجة والتي تعتبر المدخل المنطقي للتنمية المستدامة وعليه لا بد من دراسة تقويم الاستراتيجية البيئية ودراسات تقييم الاثر البيئي للمشروعات المقترحة. ويمكن تعريف "تقويم الاستراتيجية البيئية" (SEA) على انه عملية للتقييم والتقويم البيئي الأولى للأهداف العامة للتنمية الخاصة بالمشروعات الكبرى في مراحل وضع السياسات والمخططات والبرامج الخاصة Policies, Plans and Programs (PPPs) بهذه المشروعات وذلك لضمان الجدوى البيئية لهذه السياسات والمخططات والبرامج. ونجد انه حتى يتم نوع من التنمية المستدامة والتكامل التنموي على المستوى القومي والإقليمي والمحلى لفتح الصحراء من المنظور البيئي لا بد ان تتم مرحلة "تقويم للاستراتيجية البيئية Strategic Environmental Assessment" لتكون أولى خطوات تغيير المفهوم من غزو الصحراء للمدلول بفتح وإنماء الصحراء. ومن ثم وضع الأسس والمبادئ الأساسية للقيام بأعمار الصحراء والتنمية المستدامة وتعتبر مرحلة مبدئية لاتخاذ القرار، تكتمل بعمليات تقييم الأثر البيئي للمشروعات (Environmental Impact Assessment (EIA) والتي تأتي في مراحل لاحقة وذلك لضمان تكامل المشروعات على مختلف مستوياتها واستدامة وتواصل التنمية المستهدفة.

ويجب أن نشير إلى العناصر الأربعة المعنية بالإشكالية البيئية المطروحة لفتح الصحراء وهى أولا: **السكان** وما سيرتبط بهذا العنصر من قضايا مكانية ومياه وطاقة وغذاء وغيرها من المتطلبات. وثانيا: **التقنية** وما سيتضمنه من أسلوب إنتاج الغذاء والتخلص من المخلفات والصناعة والطاقة وغيرها من أساليب التعايش مع البيئة والتأثير فيها. وثالثا: **الاستهلاك** وهى قدرة كل الأطراف في المشاركة في المنفعة من المصادر البيئية المتاحة وما يتضمن ذلك من موارد مائية وأراضى زراعية وثروات تعدينية وحتى الهواء نفسه. ورابعا وأخيرا: **الاستدامة والتواصل** وهى القدرة على بناء أنظمة من استعمالات الأراضي واستغلال الثروات بما يسمح بالتوازن البيئي ودون استنزافها¹¹. وعليه فإن الهدف من تقييم الاستراتيجية البيئية هو محاولة لضمان استدامة التنمية المستهدفة وتواصلها وشمولية الدراسات لكافة جوانب إنماء الصحراء.

ومما لاشك فيه أن توافر المعلومات والدراسات المختلفة واستخدام صور الأقمار الصناعية ونظم المعلومات الجغرافية GIS هو المحور الرئيسي للتنمية المستدامة وحجر الزاوية لنجاح الهدف المفترض من "تقويم الاستراتيجية البيئية"، وذلك لمساندة صانعي القرار في اتخاذ القرارات الصائبة، وقد يتطلب ذلك أعاده ترتيب وتنظيم شامل لكافة المؤسسات والهيئات المعنية بهذه الدراسات، وكذلك استحداث وتوفير كافة القوانين والتشريعات المنظمة لهذه المجالات.

مسابقة الخروج

إشكالية مستقبل مصر والتنمية المستدامة والتوجه للصحراء في هذه المرحلة ليست في الافكار المستقبلية والمبادرات التنموية (بناء الحضارة) ولكن القضية اعداد اجيال تتحمل مسؤولية المستقبل (بناء الحضارة).

ولأن الحضارة وليدة التحدي والحضارة تبني ولا تمنح وتحتاج مثابرة وعمل مع فهم للمعني وللذات وللمكان وللزمان، وقد يكون هناك نيات صادقة للعمل والبناء ولكنها اما ان تبقي نيات او تتحول الي سراب تحت وطأة الحيرة والبحث عن الذات، والمرحلة التي تعيشها مصر حاليا في كل المجالات ومنها العمارة والعمران وحلم حضارة مصر تتطلب أن نتقبل كل ما يطرح من افكار ومبادرات ولا تؤخذ فيها قرارات وان نتفهم ان ما تحتاجه مصر في المرحلة الاولى هي مرحلة بناء الحضارة ثم تأتي مرحلة بناء الحضارة.

وفي تفكيرنا لمستقبل مصر يمكننا طرح السؤال؟ ماذا كان يحدث لو أن نوحا عليه السلام لم يصنع سفينته قبل الغرق الكبير؟ هل كانت هناك حينذاك حياة علي وجه الأرض؟ فالقضية هنا: كيف سيعيش أبناؤنا؟ وماذا يينظرنا في المستقبل القريب؟ وأن الخروج وبغض النظر عن الجدل بين متحمس ومتحفظ، ومؤيدا ورافضا، له ناتج من تساؤلات اخري وجدت قبل الثورة واصبحت ضرورة مع الثورة وتتكامل مع السؤال الأول: هل بمقدور مصر أن تعمل وتنمو في إطار الوادي القديم (5%) وحده تاركة (95%) من مساحتها معطلا؟ وماذا يحدث بعد ربع قرن بدون التوجه للصحراء؟ والإجابة: أن مصر قد يكون متاح لها اليوم أن تتسأل ولكن مع الوقت لن يكون هناك مجال للسؤال وأن الخروج نحو الصحراء ضرورة حياة لمستقبل الغد، وليس مجرد ارض جديدة تضاف إلي حيز المعمور أو مشروع نهضوي يستوعب مختلف مجالات النشاط إنتاجيا وخدميا أو أداة لإعادة توازن إلي خريطة مصر سكانيا وعمرانيا واقتصاديا، وأن علاج مشاكل الوادي المتراكمة سيكون بفتح الصحراء بمختلف السيناريوهات المطروحة وفقا لامكانيات وحدود البيئات الصحراوية المختلفة والمتنوعة وأن تعدد السيناريوهات والدراسات والمبادرات المطروحة تكون ذات فائدة عظيمة في تلك المرحلة وهي اول مرحلة من مراحل الخروج وهي خروج الافكار والتي تتفق في الهدف من الخروج (لماذا) وتختلف في تفاصيل سيناريو الخروج من أين وكيف ومتي وهو أمر وفقا لمرحلة افكار الثورة يتطلب فكر جديد غير نمطي أو متكرر يعتمد علي التكامل فيما بينها لبناء تنمية مستدامة لعمران مصر وليس التنافس أو مجد الفرد في الطرح والرؤية، وبشراكة الجمع والمجتمع من شيوخ وعلماء ومتخصصين وساسة ودولة وحكومة ومواطن وشباب واجيال قادمة ومن خلال عمل متواصل دؤب معتمدا علي نظام وليس فرد او حكومة والا نبدأ بتوقعات متفائلة وننتهي بنتائج محدودة أو إحباط كما حدث في مراحل سابقة لهذه الامة.

ويطلب عمل دراسات مستقبلية للتنمية المستدامة لعمران مصر عدة مستويات ومراحل: بداية من الافكار وحتى مرحلة التنفيذ، لا بد من توفر النية الصادقة والنظام الذي لا يعتمد علي فرد وتوفر الكفاءات ومعها اطار زمني من اجيال وميزانيات من موارد وعلم وتقنية واقتصاد. وفي مرحلة الخروج الحالية لا بد من وجود قاعدة معرفية تساعد علي الحوار واختيار المستقبل الأفضل لمصر. تتكون هذه القاعدة المعرفية من شقين:

- الشق الأول: التعليم وبناء الذات وفهم للتقنية والسرعة التي تتم معها التغيير مما يمكن أن يخلق تصورات بديلة للتنمية المستدامة لأعمار مصر بالصحراء في مختلف المجالات، وهو ما يطلق عليه سيناريوهات،
- والشق الثاني: تقدير لمنافع وتكاليف واستدامة التنمية كل سيناريو، وتصور لحالة الإنسان والمجتمع التي يتمخض عنها كل سيناريو للتنمية المستدامة في المستقبل.

وعليه كانت فكرة عمل المسابقة لخلق روح التحدي بين شباب مصر تحت سن 35 سنة، والمسابقة هنا ليست هدفا بقدر انها وسيلة للوصول إلي افكار ابداعية ابتكارية رائدة لمجتمعات تناسب ظروف وطموحات الدستور الجديد ومستقبل مصر والمجتمعات المستدامة بفكر واسلوب تكاملي ديمقراطي يسمح بإعداد المجموعات القيادية وأجيال واعية واعدة تشارك في صنع وبناء واستشراف وتحمل مسؤولية ذلك المستقبل.

أ- حمدان، جمال : " شخصية مصر: دراسة عبقرية المكان " ، الجزء الأول، دار الهلال ، ص 274-275.

² - Wood, C. " Environmental Impact Assessment: a Comparative Review", Longman Group Ltd., Harlow, Printed in Malaysia, First Published 1995, P. 266.

³ - Marsh, W. and Grossa, Jr., J.,: " Environmental Geography: Science, Land Use, and Earth Systems", John Wiley & Sons, Inc., USA, 1996, P 7.